الانجام الآخر ... لله

بقلم محمود حسن الغريب

قل ساهما في مكانه من زاوية المسجد اليمني بعد ان ادى صلاة المغرب ، وحيا الحاضرين وهم يجيبونه على تحيته ، وعيونهم متجهة اليه في اغتباط وغيرة متمنين لو كان ابناؤهم مثله « واخذين شهادة » وتنتظرهم وظيفة .. ولم يقل احد للاخر كما اعتادوا في الليالي السابقة من كثرة ما خاضوا في سيرته .

ـ والله ابن « الملا » صح يا جدع ...

ذلك ان السهوم الذي اعتراه شغلهم عن قول ذلك ، وعجبوا لتجهم ملامحه وما فيها من انشغال بال وعهدهم بها في الليالي الفائتة منبسطة تشف عن فرحة كبيرة منذ ظهرت نتيجة الدبلوم .. وهل نسوا الكلمات التي ما فتئت تنساب من شفتيه في انتصار لذيذ يذكرهم بنشوة ايام الحصاد بعد مجهود عام كامل ؟ لم اذن يغشاه هذا السهوم وهذه الكآبة ؟.. كيف يضم قلبه على اسى ولوعة ؟.. أيكف عن اثارة الهمس في زاويته هذه وقد كان لا يمله ساخرا .. مثلا ـ ممن يؤدون ركوعهم وسجودهم خطفا يذكره بمرجيحه العيد خالية ، تركها صاحبها تهتز الى الامام والخلف ، صاعدة هابطة بلا غاية .

وربما يسخر او يعلق على شيء آخر او يعترض على بعض مواعظ امام المسجد كلما بالغ او اشتط في تعقيد امور الدين المتلئة بساطة ويسرا ، كما اوضحت هذا كتب كثيرة طالعها في مكتبة الشيخ نفسه ، غير ان اعتراضه او تعقيبه على حديثه كان مشوبا دائما بالرقة والذوق ، فهو لا ينسى افضال الشيخ عليه في بدء حياته حيث حفظ عنده كثيرا من القرآن وتعلم الكتابة بلا اجر ، ترضية وعونا لابيه الفقير ، وصمم والده منذ ذلك الحين على تعليمه رغم ضآلة موارده التي لا تسمح الا بكفاف العيش ـ فكيف يتعلم فرد في الاسرة التي بلغت في عامها هذا ستة ؟

ولعل والده آنذاك كان يطمح ان يرتقي ابنه يوما الى درجة الشيخ فيخلفه في امامة الجامع بعد عمر طويل ، لولا ان ابن الشيخ نفسه راح المدارس وعاد في الاجازة بهيئة جديدة اشاعت نشوة غامرة في نفس « كمال » دفعته الى تخيل نفسه مرتديا الزي المدرسي بعوده النحيل ووجهه المستطيل وعيناه تجولان حوله ترقبان وقع مظهره في الناظرين اليه ... فاذا فرغ من ذلك تلاقت عيناه بعيني سميرة يستشف منها رأيها .. عندئذ ستبتسم .. أو ربما لا تبتسم .. ويتحسس شعره بيده .. وجرى الى مرآة امه المكسورة .. عليه كذلك ان ينظف شعره المفر ويسرحه كاخيها .. ليتجاوب لمعانه مع بريق عينيه الذي تهواه سميرة .. انها ستبتسم .. وربما قفزت من الفرحة بفتاها الذي ستباهي به اخاها .. وان يكن من بعيد وبحذر.

ووجد المرآة في يده فرماها مسرعا الى ابيه .. وأفاد الحاحه في الحاقه بمدرسة المدينة القريبة ، وكانت حجته الكبيرة في اقناع والده يومئذ انه لن يكلفه شيئا ، وسوف يقطع المسافة ماشيا . و « عملها » ابوه كما قيل يوم ذاك ، وحجز له جزءا من « المسنية » يقوم بالصرف على طلبات المدرسة الضرورية ، وعندما سمع بهذا جاره الشيخ ابدى استعداده لبذل كل معونة ، وتدخل احد الجالسين على المصطبة التي جددتها حديثا ... ام كمال ..

ـ لكن انت راجل ضعيف يا ابو كمال .؟

ـ انا صحيح راجل ضعيف لكن اعمل ايه .. ابني لقيته « غاوي » المدرسة اللي ربنا يريده يكون ... على كل حال يمكن ربنا يعين ويبعت لنا رزق كفاية .

ومن يومها والطريق بين القرية والمدينة ترتاده قدماه في اليوم الواحد مرتين ولم تكن رغبته في الحقيقة قائمة على مجاراة ابن الشيخ في هيئته المدرسية هي التي دفعته الى ذكر هذه الامنية بل كانت هناك رغبة اخرى تستتر وراء هذه الامنية التي فتن بها وقتئذ .. فمنذ ذكر له ابن الشيخ نظام المدرسة وخلوه من آثار عصا كعصا ابيه وهو يلح يحرص على ان يتاح له دخول المدرسة التي تستقبل التلاميذ في الصباح بطابور وموسيقى بدل شتائم الشيخ او لسع عصاه .

وربما كان هو في اول الامر لا يكترث لعون الشيخ لابيه في الازمات ـ وما اكثرها ـ بيد ان تفتحه رويدا علمه قيمة ذلكفهو يقبل على مساعدة الشيخ او يرعى بعض مصالح حقله برضى وعرفان بالجميل ، وهو ايضا يوفيه حقه في التكريم والاحترام .. ويذود عنه اذا ما مسه مكروه . لكنه لا يقبل في بعض الاحيان اشياء مما يرويها في الدين والدنيا الا ان يكون لها مدلول ووراءها ارتكاز .. كحكاية الولي الذي رفض ان يقتل الفيران لانها مخلوق او ان يطردها لئلا تذهب الى جاره .. فقد قال كمال لنفسه : « ستقتله هي بكثرتها او تطرده كي لا يزاحم المكان ! »

وقد يسمعه بعضهم فيرسلون ابتسامة او يخفون ضحكة او يوجهون اليه نظرة ذات معنى .. ماذا في مقاله ؟ افيه ما يعد اساءة للشيخ ؟ انه ليس حتما ان نقبل اقوال من نحبهم او نحرص على احترامهم اذا كان فيها مجال للمراجعة والتصحيح . ويدفعهم هذا القول وجهة اخرى يعللون بها الحرص على الاحترام .. والحب . وتتابع شواهدهم مثل وقفة « سميرة » كثيرا معتمدة خدها بكفها ومرتفقة بيدها الاخرى حافة النافذة او حافة سور السطح خصوصا وقت الاصيل حيث يحلو لكمال المذاكرة فوق سطحه المقابل .. وربما يتحادثان بهمس وحذر او يضعان خطة لقاء ، فاذا ما احسا باحد اطل بدرت من عين احدهما نظرة محذرة او حرك راسه بهزة مفهومة . ويغضب كمال لتصور بعضهم ان هذا وحده وراء تقدير الشيخ ، فمع انه يحب « سميرة » الا ان احترامه الكامل له قائم على تقدير لخلقه النبيل .. ! ليس من بعض نبله ان يسعفهم في الازمات ويقيل عثرتهم عند كل كبوة ؟. هل ينسى السنة التي عجز فيه والده عن دفع المصروفات فقام الشيخ بتسديدها ؟ وربما هناك من لا يعرف هذا .. على ان الشيخ دون هذا موضع تقدير الجميع ، فلماذا يصر بعضهم على اقحام حبه في مسألة يشترك فيها الجميع ؟

وما هو العيب في ان يكون وراء بعض تقديره له ؟ ما الغريب في ان نحب اهل من نحبهم حبا مضاعفا ؟ ومع ايمانه بهذا فهو يحاول ان يغلف امر حبه بالغموض حتى لايمتد ما يشاع الى الشيخ بطريقة مباشرة رغم ان هناك تفاهما عاما بين الاسرتين تدعمه كثرة الزيارات والمنافع المتبادلة ، فمن خلالها طالما راق الحديث حول الاطار الذي يضم الامنية ، ولو ان الامهات في جلساتهن المنفردة يستغنين عن الاطار . وربما هذا ما يحدث من والده في حديثه مع امه ، لذلك اعتاد ان يسمع منها « اجتهد يا ابني علشان نفرح بك » ويستضيء

وجهه بابتسامة وتنسج خواطره احلامها وتنساب الذكريات .

خلال هذا وضح له ، فيما تؤديه امه من مساعدة ، روح تعاون مضاعف ، يلمسه اذا ما جاء يوم مزدحم بالعمل كيوم الخبز ـ واذا احتاج اليها في هذا اليوم او كان هذا هو الظاهر ، وتراه ام سميرة.. تصر وتقسم على ان ياخذ رغيفا ساخنا من يدهـا او بلهجة فيهـا استدراك من يد « سميرة » ...

ـ نوليه يا سميرة يا بنتي . .

وتتدخل امه منشرحة :

ـ خد يا كمال يا ابني من ايد خلتك.. وشوف عمايل سميرة.. ادين منعدمهاش ابدا عقبال مانفرح بسميرة يارب .. وكمـال ابنـي ياخذ الشهادة كمان .. وتؤكدام سميرة ردها بتكراره ..

ـ انشاالله يا رب .. والنبي يومها لازم اعمل الشربات باديه ده كمال عزيز خالص زي ابني تمام .

ـ منعدمكوش ابدا .. وربنا يخليكو لنا طول العمر .. يارب..

في اثناء هذه الدعوات المتتابعة يجيب « كمال » بكلام مناسب ايضا وهو يقدم الرغيف لاخيه الصغير في نفس الوقت الذي يختلس فيه نظرة سريعة لسميرة المضرجة الخدين من وهج النار والحديث معا.

هذا بعض ما يعيده لسهوه وتفكيره ونظراته التي تجول في انحاء المسجد وتقع على رؤوس الناس او ظهورهم ثم تمتد هذه النظرات بعيدا تشارك خواطره المنطلقة بكثرة والتي لا يقطع انطلاقها الا تكبيرة رجل او تسليم آخر او نحنحة انسان او حديث الشيخ عن الجنة التي يبلغ عرضها السموات والارض ، كمـا تقول الآية الكريمـة والاحاديث المختارة . ولما اقترب حديثه عنها من نهايته انتزع «كمال» من خواطره دفعة واحدة صيحات التاثر ومصمصة الشفـاة وتكبيرة احدهم العالية بانجذاب لفتت الانظار اليه ، وتوزعت هذه الاشيـاء في المساجد بطريقة استاثرت بخواطره فتابع الشيخ قليلا ، بينمـا كان يتساءل عما اعده الفرد منهم لدخول الجنة ؟

وثارت جلبة في اماكن خلفية لفتت انظار الجالسين في الامـام عندما اقبل احدهم متخايلا من دورة المياه يسعل بما يشير الى حضوره ويتخذ طريقه عبر المصلين او الجالسين مصطنعا الرزانة والخشية ، ثم يجلس في زاوية تتيح له الظهور في ضوء المصباح الوحيد ، انه لو تابع ما يشاهده لما انتهى ، فهنا تمر اشياء كثيرة كلما التفت الى شخص او موقف ، الا انه ضـائق بهذا كله تواق الى ان ينصرف لشانه ، ولذلك فهو يرد السلام الموجه اليه دون وعي كامل ، مع انـه ذكره بسلامها له ذات مرة على غير عادتها قبل ان تغيب عنه تماما اذا مـا اشتدت ايام المذاكرة ـ ولما همت بتركه غضب منها .

ـ اصلي خايفه على الوقت ... عيزاك تنجح .

ـ عشان ايه بقى ...؟

ـ الله ـ عشان نشرب الشربات .

ـ آه .. منك .. الشربات انهو فيهم ؟

ـ هما كام شربات ؟ شربات النجاح باولك ؟

ـ .. والتاني ... ؟

ـ . . . . . .

وتركتـه هامسة :

ـ ياللا ... الوقت ...

وشغله من جديد بحاضره تزايد الجلبة وتكاثر الحاضرين وارتفـاع صوت بتكبيرة طويلة وغير بعيد انتهى الرجل الذي حياه من صلاتـه وحانت منه التفاتة الى كمال دفسته الى سؤال من بجانبه وهو يومىء تجـاهه :

ـ ماله ..؟ سرحـان ليه ..؟

ـ الظاهر ان فيه حاجة شغلاه ؟

ويتدخل احدهم بلهجة الواثق : تمـام .. الجدع خلص .. والبنت مستنياه ليه ما يكنش مشغول ...؟

ورأوا اخاه « سيد » يقبل عليه مزهوا ثم يكـاد يلتصق به ، وكونت بسمة « كمال » الرقيقة اجابة عما في قسمات اخيه من فرح ومشاركة لما تعكسه عيناه من مشاعر ، ودفعته عاطفته الى احـاطته بيده يريد ان يضمه لولا ان عثرت انامله على تمزق في جلبابه ذكره بحديث ابيه عن حاجة الصّغار للابس اخرى وشكواه من المصلين الذين لم يسددوا ما تبقى من « المسنية » فربمـا ـ مع استلاف قرشين ـ يستطيع ستر الاجساد التي بدات تتعرى ، وبدا من حديث ابيه ان هناك شيئا لم يشر اليه . لماذا لم يقل .. « او ننتظر تعيينك لتشتري انت ملابسهم ؟ » اليس هذا ما سيحدث اذا لم « تفرج » بالشكل الذي ذكره ؟ ولم يحتمل وقتها حديث ابيه ، فطلب اليـه بانفعال ان يترك عمله في خدمة المسجد ، وسيتولى هو نفقـات المعيشة وسياتي بالملابس للصغار واحس باندفاعه ، فمن المؤكد لديه ان اغلب هذه الاشياء امنيات بعيدة لكنه اندفع بكلمته ولم يدر لـم نسي سميرة ضمن هذا الموضوع ؟ ان انتظار حسنات المصلين هـذه تضايقه كثيرا ، فمع ان والده هو خادم المسجد ، وهو عمل لا عيب فيه ، الا ان الناس تنظر الى القائم به باستصغار وقلة شان ، ثم هي تماطل في الدفع في نفس اللحظة التي تصرخ فيها من خلوه من الماء .

ولما رفض ابوه فكرته باسطا له ظروف معيشتهم اشار الـى الصغار كمن يقول : « انت ترى يا بني كثرة العيال ... اننا نحتاج لكل شيء من اجلهم . » وشاركته امه في التعبير عن حالهم ولو انهـا همست فجاة : « وسميرة ؟ مش حنفكرله فيهـا دلوقت ؟ » وبدا الصمت على ابيه ، فاجاب كمال مسرعا :

ـ واخواتي يامه ؟

وهزها جواب ابنها فتمنت لو تملك شيئا تحقق به كل مآربه.. لقد فعلت ذلك من قبل حينما باعت « النميسة » .. كـل ماتملك .. لتسدد بها مصاريفه .

مجموعات الآداب

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنـوات الثماني الاولى من الاداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلّدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ ل.ل	١٠٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الثامنة	٢٥ «	٣٠ «

كان هذا الجواب بداية حيرته وكآبته وسهومه ، فقد وضح له انه كان مدفوعا بظروف الموقف امام ابيه وامام السؤال الخطير الذي اطل من عينيه حينما بدا عليه الصمت « أتتخلى عنا يا ولدي ؟ » .. وفي اللحظة نفسها كان الصغار حوله يتطلعون اليه باعجاب من يتمنى ان يكونوا مثله . بل ان الصغار فيما بينهم يتنازعون على ما يحبون ان يكونوه في المستقبل اذا ضمتهم المدرسة مثل اخيهم الكبير، فعلوا ذلك مرات عديدة حتى قبل ظهور النتيجة اذا ما ارتفعت دعوات امه باتجاه السماء ، او اجتمعوا باولاد الحارة يمثلون دور المدرس والتلامذة ويذكر ان اخاه « محمد » الصغير جاءه مرة يبكي ، فالمدرس ـ احد الاولاد الكبار ـ طرده لان جلبابه ممزق ، ومسح دموعه ووعده بجلباب جديد بعد الوظيفة ، وفرح الطفل بهذا الوعد كان الجلباب سيأتي في اليوم التالي. فهذا ما قاله للاولاد حتى اعادوه الى الطابور والشيء الذي الزم كمال امه بتنفيذه تلك الليلة واشترك في تحايلها على تثبيته ، هو اضافة رقعة اخرى للمكان الممزق في جلباب الصغير، وهذا « سيد » بجواره يحتاج لجلباب جديد ، تجرأ مرة ورغب ان يكون مثل جلباب ابن الشيخ الصغير ثم اضاف مطمئنا « سميرة حتخيطه له » ونسي ان يضيف في نشوة ما قالته سميرة عن نيتها في حياكته شبيها بحياكة جلباب « كمال » الوحيد الذي لا يزال يعامله برقة ويحافظ عليه كي يستر به المظاهر . وضم كمال موضع التمزق ليخفيه ولمح طفلا يشير لاخيه بالدنو فيرفض بهزة من رأسه خشية ان ينهره كمال مثلما حدث في الصباح حينما خطف من هذا الطفل قطعة سكر كان يتباهى بها على صبيان الحارة . ان « سيد » يحمل (لسميرة) الفضل في انقاذه من ضرب اخيه وحثه على الجري بعيدا، ثم شغلت كمال بالحديث عن شقاوة الصبيان مع ان عينيها كانتا تستفسران عن شيء لا تقوله .. شيء سري في صدرها منذ اسبلت جفنيها يوما لتكتم السر الذي اوشكت ان تبوح به ، وعندما امسك بيدها تناقلت ايديهما حديثا عنه فاض في لحظة فعدت هاربة تاركة انظاره تتبعها خلف الباب الموارب . واكتسب من وقتها ميلا طاغيا تجاه الباب فاصبح النظر اليه احدى الحاجات الضرورية في يومه حتى لتتجه اليه عيناه عفوا .

امن الممكن اذن ان يستبدل بذلك الطابع آخر مختلفا عنه على امل بعيد في الرجوع اليه ؟ كم يبدو من الصعب حقا ان يقوم المرء بتخطيط حياة جديدة دون مراعاة لقلبه الراعش ..... زمنا قد يطول .

من هنا هو غارق في هذه الهموم يريد الهرب من شيء ينبعث من عينين اطلتا بباب موارب .

وهزه احدهم عقب انتهاء الاذان فتحرك ببطء لصلاة العشاء ـ وانحرف في وقفته عن المحراب فهزه الرجل مرة اخرى باسما :

ـ خليك معدول .... كده ... في الاتجاه ده .

وانصرف المصلون بعد الصلاة واحدا اثر الاخر ، وبقي «كمال» جالسا يفكر فيما يمكن ان يستقر عليه رأيه ، ويبدو انه غاب كثيرا في جلسته اذ جاءه بعض اخوته يبحثون عنه او يسألونه الحضور فلديهم سميرة وامها وشغله اخوته بأقوالهم وثرثرتهم .

ـ امتى حتوديني المدرسة ... ؟

ـ وانا كمان ..؟

وانا ... انا عايز ابقى مدرس كبير ... زي فهمي افندي.. وابقى ناظر كمان .

واشرقت ابتسامة في وجهه وفاضت نفسه بمشاعر خصيبة وهو يمضي بهم الى الخارج يتصورهم كما يتمنون ـ وفي داخله يتردد قول الرجل ..

ـ ... كده ... في الاتجاه ده .

القاهرة — محمود حسن العزب

غرباء

امس التقيت بكم على قممي
وضحكت .. ثم شربت انخابا

وحشدت الهة الزمان على
بابي ... عصرت الليل اعنابا

وفتحت نافذتي . واروقتي
عرشتها .. طيبا ولبلابا

وجدلت افراحي دروب مني
وحملت من نيسان اطيابا

وتهدل الظل الحيي على
شرفاتنا الزرقاء اهدابا

انصاف آلهة هنا اجتمعوا
وتفرقوا في الارض اربابا !

نحن الالى عاشوا الخريف وما
لمحوا الربيع الطفل جوابا

غرباء .. اشباح مشردة
في التيه ... يلتفتون اغرابا

انظل رغم دروب غربتنا
يا اخوتي .. انظل احبابا ؟

**

غدا العرائش في بيادرنا
معروقة ... ستعود احطابا

سنموت ان جف الربيع غدا
لكننا سنعيش احقابا

يا اخوتي ورفعت ثانية
كأسي .. فعبوا الان انخابا

وتركتكم .. وظلالنا ابتعدت
فوق الطريق .. نغيب اسرابا

أنظل رغم دروب غربتنا ...
يا اخوتي .. انظل احبابا !

محيي الدين فارس